المقدمة

المقدمة

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه، وصلاة وسلامًا على خير الخلق والمرسلين نبينا محمد الهادي الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسلم وبعد،،،،

تتناول هذه الدراسة الحياة الاجتماعية في مدينة حلب في العصر المملوكي (٦٥٨–٩٢٣هـ/١٢٦٠–١٥١٧م)، ولهذا الموضوع أهمية كبيرة في التعرف على طبيعة الحياة الاجتماعية في مدينة حلب في تلك الحقبة المهمة من تاريخ السلطنة المملوكية، وذلك لما حظيت به مدينة حلب من خصوصية داخل التقسيم الإداري في السلطنة المملوكية، بما يُؤدي إلى إبراز الخصوصية المحلية التي غالبًا ما تضيع داخل ما هو عام ومشترك بين كافة نيابات سلطنة المماليك، وخاصة أن حلب كان لها إنتاج حضاري كبير في النواحي الاقتصادية والعلمية بعامة، والنواحي الاجتماعية – موضوع الدراسة – خاصة.

وكان لموقع حلب دور كبير في تلك الأهمية، حيث كانت مدينة حلب عاصمة لمملكة شمال بلاد الشام في العصر المملوكي، وضمت المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط غربًا إلى نهر الفرات شرقًا، ومن بلاد الروم في الشمال إلى حدود منطقة حماة في الجنوب، وبهذا تكون مملكة حلب قد شكلت الحدود الشمالية للدولة المملوكية، وحملت على كاهلها حماية تلك المنطقة من المغول والأرمن والتركمان والبدو وغيرهم؛ لأنها كانت أكثر مدن سلطنة المماليك تعرضًا للغزوات والغارات فضلًا عن تعرضها لكثير من حركات التمرد والعصيان الداخلية، ولعل مما فرض عليها هذا الواقع موقعها الفذ على الطريق الرئيس بين إقليم الجزيرة شرقًا من أقاليم آسيا الوسطى من ناحية وشمال الشام وأقاليم شرق حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى؛ مما جعل منها مقصدًا للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، وواحدة من أهم معابر الغزاة والفاتحين، ومحطة مؤثرة للمسافرين والعلماء والفقهاء والرحالة، وفي ظل تلك الملابسات تحمل الحلبيون ما يفوق طاقهم وعانوا كثيرًا من الصعوبات التي ترتبت على أهمية موقع مدينتهم، وخاصة مع سعيهم للاحتفاظ بكيانهم سواء كان هذا الكيان مستقلًا أم تابعًا لقوة أخرى أكبر.

ولا ريب أن البحث في الحياة الاجتماعية ليس أمرًا سهلًا، وتكمن الصعوبة في قلة المادة العلمية المصدرية، علاوة على تناثرها في المصادر وتشتتها وإيجازها؛ وذلك لأن المصادر المعاصرة التزمت منهجًا في عرض المادة التاريخية ركز على إبراز صورة السلاطين والأمراء والخاصة ومن دار في فلكهم من فئات المجتمع الحلبي وعناصره، وفي ذلك الفلك الخاص قل الاهتمام بالحياة الاجتماعية، وأهم مظاهرها في المجتمع الحلبي

البعيد عن القاهرة عاصمة المماليك ومحور اهتمام المؤرخين، فلم تكن حلب عاصمة السلطنة، ولم تكن المدينة الأولى فيها على غرار القاهرة أو المدينة الثانية على شاكلة دمشق؛ ولذا كان من الصعب الوقوف على مادة علمية تاريخية تخدم الباحثة في دراستها للحياة الاجتماعية في المدينة، بما يعكس حياة الحلبيين في حلب وقراها في أعيادهم واحتفالاتهم وبيوتهم ووسائل تسليتهم وترفيههم...إلخ.

وتتمثل الصعوبة الثانية في عدم اهتمام المؤرخين بالفئات الاجتماعية الأخرى من المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمة وأوضاعهم الاجتماعية، ناهيك عن كون تلك المنطقة المحيطة بحلب – والتي تُعتبر المدخل الشمالي الشرقي لسلطنة المماليك – لم تشهد استقرارًا طيلة قرن وربع من الزمان؛ لأنها صارت مسرحًا للحروب المتعددة بين المماليك والمغول، وتزامن ذلك مع الصراع ضد الأرمن والحروب بين القبائل العربية والتركمانية نفسها، وبينها وبين السلطنة من جهة وحلب من جهة أخرى.

وواجهت حلب في تلك الفترة العصيبة مصيرها أمام تقدم المغول بشكل خاص في أغلب هجماتهم على بلاد الشام، ولم يتم ترميم الحصن والأسوار التي أصيبت بأضرار فادحة في عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م سوى في نهاية القرن التالي، فكانت حالة مدينة حلب في منتصف ذلك القرن مُزرية؛ فبسبب تعرضها المباشر للجبهتين الشرقية والشمالية، واحتلالها من قبل المغول مرات ثلاث تحولت إلى حاله فقر مُدقع في عام ٦٥٨هـ/١٣٦٠م، وتهدم الحصن والأسوار والجامع الكبير وبعض الأبنية المحيطة، وفي عام ٦٧٩هـ/١٢٧٠م جرى نهب الجوامع ومنازل الأمراء وقصور السلاطين وإحراقها.

ومن الدراسات السابقة في هذا الموضوع، دراسة جورج فريد طريف داود بعنوان "مدينة حلب في العصر المملوكي"(١)، وتناول في تلك الدراسة مدينة حلب من النواحي السياسية والحضارية في العصر المملوكي، ولم يخصصها للنواحي الاجتماعية التي أهدف إلى دراستها بشكل منفصل ومركز. وعلاوة على ذلك فإن هناك دراسة زياد عبد العزيز المدني بعنوان "مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب "الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب"علاء الدين أبو الحسن ابن خطيب الناصرية(٢)، وقد ركزت هذه الدراسة على العصر الثاني، وعالجت كافة المظاهر السياسية والحضارية في مدينة حلب، ومن خلال

٢

(١) جورج فريد طريف داود: مدينة حلب في العصر المملوكي، ماجستير تاريخ إسلامي، الأردن،١٩٧٧م ص ٣ ٤ ١٦٩.

(٢) زياد عبد العزيز المدني: مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب "الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب" علاء الدين أبو الحسن ابن خطيب الناصرية، ماجستير تاريخ إسلامي، كلية الآداب، الجامعة الأردنية،١٩٨٣م ص ٣ ٤ ٢٢٣.

الرؤية التي قدمها ابن خطيب الناصرية عن مدينة حلب، وقد قارنت الباحثة بينه وبين المصادر الأخرى المعاصرة. وشبيه بها دراسة مروان أحمد دخان بعنوان "حلب في العصر المملوكي الثاني"( )، ولكن من خلال كافة المصادر المملوكية. ٣

أما دراسة كمال بدور التي حملت عنوان "حلب في العصر المملوكي الأول"( ) فإنها على العكس من الدراستين السابقتين اللتين ركزتا على دراسة العصر المملوكي الأول وتناولت فيها الباحثة كافة النواحي السياسية والحضارية في حلب. أما دراسة عادل عبد الحافظ حمزة بعنوان "نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (٦٥٨-٩٢٢هـ/١٢٦٠-١٥١٦م)( ) فقد تناولت تاريخ نيابة حلب طوال العصر المملوكي، وعكف فيها على دراسة الأوضاع السياسية والحربية والإدارية وبعض النواحي الحضارية في نيابة حلب طوال العصر المملوكي. ٤

وقد أفادت الباحثة من هذه الدراسات الرائدة وبخاصة في منهج المعالجة والأفكار التي طرحتها، علاوة على الوقوف على المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، ولكنني أسعى إلى تسليط الضوء على النواحي الاجتماعية وحدها، بهدف إبراز ما به من خصوصية وتفرد وتميز نتيجة للظروف التي مرت بها حلب والتي عرضت لها أعلاه. وفي ظل ذلك فقد حرصت الباحثة على دراسة الحياة الاجتماعية في تلك الفترة المضطربة لتقديم صورة متكاملة عن الحياة الاجتماعية لسكان حلب من حيث طبقاتهم الاجتماعية وعناصرهم وفئاتهم الاجتماعية وعلاقتهم بعضهم البعض داخل المجتمع الحلبي، ناهيك عن دراسة أهم عاداتهم وتقاليدهم ومستوى معيشتهم وما إلى ذلك بما يُسلط الضوء على صورة المجتمع بصورة واضحة في تلك الفترة المهمة.

ولا ريب في أن مدينة حلب – باعتبارها قاعدة للمملكة الحلبية – كانت مركزًا رئيسًا لأهم الحوادث التي وقعت في شمال بلاد الشام، ولذا وفي ظل تلك الملابسات فقد باتت الإشارات التي وقفت عليها الباحثة قليلة ومتناثرة، وخاصة أن تلك من أهم الصعوبات التي يواجهها الباحث في الحقل الحضاري،

---

(٣) مروان أحمد دخان: حلب في العصر المملوكي الثاني، دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، ٢٠٠٩م، ص ١٥٠.

(٤) كمال بدور: حلب في العصر المملوكي الأول، ماجستير تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٢م، ص ٩٧ ٢٤٦.

(٥) عادل عبد الحافظ حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (٦٥٨ ٩٢٢هـ/١٢٦٠ ١٥١٦م)، ٢ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٦

٢٢.

حيث تتفرق المعلومات بين معاجم الجغرافيا، وكتب التراجم والتاريخ ودواوين الشعر وغيرها، فضلًا عن ما يترتب على طبيعة الدراسة في الحقل الحضاري من الاستنتاج والقياس والاستنتاج للوصول إلى صورة متكاملة ومعبرة عن المجتمع الحلبي في العصر المملوكي.

وانقسمت الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وملاحق، وقائمة بأهم المصادر والمراجع. وقد تناولت في التمهيد عرضًا لأهم الأوضاع العسكرية في حلب وتجلياتها الإيجابية والسلبية على الحياة الاجتماعية، ناهيك عن مناقشة طبيعة التقسيم الطبقي في حلب، وفقًا للاصطلاح الشائع في العصر المملوكي.

وعالج الباب الأول "عناصر السكان وطبقاتهم الاجتماعية في حلب" وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول، حيث تناولت في الفصل الأول "عناصر السكان في المجتمع الحلبي" أهم العناصر السكانية التي توطنت في حلب مثل العرب والبدو والتركمان والأكراد والأرمن ومن سواهم. بينما أشتمل الفصل الثاني "الطبقة الحاكمة" أهم أرباب وظائف السيف وفي مقدمتهم النائب الذي يُمثل السلطان المملوكي في حلب وينوب عنه هو ومعاونوه ومن دونهم، إضافة إلى دراسة أرباب الوظائف الديوانية والوظائف الدينية، وكذا الجند الذين شكلوا القوة الضاربة في حلب؛ لتأمينها من جهة، ولتحقيق سياسة السلطنة في المنطقة المحيطة بمدينة حلب من جهة ثانية، بينما أشتمل الفصل الثالث "طبقة العامة" التي تشكلت من عامة الحلبيين، مثل: القضاة والعلماء والتجار والفلاحين وأهل الذمة، وغيرهم.

واحتوى الباب الثاني "دور فئات المجتمع في الحياة العامة" على فصلين، وقد أشتمل الفصل الأول "دور الفئات الحاكمة في المجتمع الحلبي" دور كل من الأمراء والوزراء والأعيان في الحياة العامة في مدينة حلب، أما الفصل الثاني " فئات العامة ودورهم في المجتمع" فتناول بالدراسة نقابات التجار والحرفيين، إضافة إلى دور أهل الذمة في الحياة العامة في المجتمع الحلبي، ودور العامة في توجيه الرأي العام في مدينة حلب، ومدى نجاحهم في التصدي للظلم والتعسف الذي تعرضوا له.

وانقسم الباب الثالث "حياة الأسرة في المجتمع الحلبي" إلى فصلين حيث أشتمل الفصل الأول "المساكن" مدى تطور العمارة في حلب، وتأثرها بالوضع العسكري والكوارث الطبيعية" في حلب والمنطقة المحيطة بها، ناهيك عن عرض أهم الملامح التي اتسمت بها مساكن الطبقة الحاكمة وأهم ما يميزها، وكذا مساكن العامة وأهم سماتها، فضلًا عن الزلازل وأثارها المدمرة على العمارة الحلبية. وتناولت في الفصل الثاني

"الحياة العامة في المجتمع الحلبي" أهم العادات والتقاليد التي سادت في المجتمع الحلبي وخاصة الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة والملابس، ووسائل التسلية والترفيه ومجالس العلم والوعظ.

كما تناول هذا الفصل وضع الصحة العامة والنظافة وخاصة دور النواب في الاهتمام بالصحة العامة والنظافة من خلال العناية الصحية بأخلاق والسلوك المجتمعي والعناية بالبيئة، والعناية بالبيمارستانات والعناية بالحمامات العامة والخاصة. وشملت الدراسة خاتمة تضمنت أهم نتائج الدراسة التي توصلت إليها، علاوة على تضمن الدراسة مجموعة من الملاحق التي تضفي بعض الوضوح على عناصر الدراسة، وذيلت الدراسة بقائمة المخطوطات والمصادر والمراجع العربية والمعربة التي اعتمدت عليها في إعداد الدراسة.

وأخيرًا فإنني أحمد الله عز وجل على توفيقه وسداده، ولا يفوتني التقدم بوافر الشكر والعرفان لأستاذي الدكتور إبراهيم بن عطية الله بن هلال السُّلمي لكل ما قدمه لي من توجيه وإرشاد؛ حتى خرجت هذه الدراسة إلى النور. كما أتقدم بالشكر والعرفان لجامعتي الشامخة "أم القرى" حفظها الله وأساتذتها وطلابها لإتاحتها الفرصة لي لألتحق ببرنامج الماجستير في التاريخ الإسلامي، كما لا يفوتني تقديم الشكر والعرفان لأساتذتي في قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية لدعمهم وعونهم ولكل من ساعدني بغية إنجاز هذه الرسالة.

ولا أدَّعي الكمال؛ لأني إنسان يجتهد وفي الاجتهاد توفيق مثلما فيه إخفاق، والله أسأل أن يكلل اجتهادي بالتوفيق والسداد، وأن تكون دراستي من صنوف العلوم النافعة لي ولغيري في الدنيا والآخرة، وبالله التوفيق والسداد.

الباحثة	المشرف	عميد الكلية
شروق بنت سفر بن عطيه الله اللحياني	**د. أبراهيم بن عطيه الله السلمي**	**أ د .الشيخ رائد بن خلف العصيمي**